السفن والمراكب في بغداد

في عهد العباسيين

Les Embarcations sous les Abbassides.

منذ قامت بغداد في جوار الفرات ، وتوسدت ضفتي دجلة بعد ان نازعت دمشق اعنة السلطة واستقلت دونها بعرش الخلافة وسرير الملك ، تعددت فيها السفن والمراكب وتنوعت في شطوطها الزوارق والقوارب ، لاحتياج السكان اليها في الجانبين الشرقي والغربي للعبور من جهة الى اخرى ؛ فضلا عن الخروج للتفرج والتنزه ، وارتياد اماكن القصف واللهو . فاتخذها كل ذي سعة وتنافس القوم في اقتنائها على اختلاف في اشكالها وضروبها ، وتباين في اوضاعها ورسومها . قال البشاري : « والناس ببغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفن وترى لهم جلبة وضوضاء وثلثا طيب بغداد في ذلك الشط » (احسن التقاسيم ص ١٢٤) .

ولذلك اقبل المرتزقون على الملاحة وتزاحموا عليها حتى اصبحوا امة لوحدهم بقضهم وقضيضهم . ولما اعرس المأمون ببوران قال الشابشتي « كان يجري في جملة الجرايات في كل يوم على نيف وثلاثين الف ملاح » (برلين كتاب الديارات ع ٨٣٢١ ص ٦٨) وكفى بهذا القول دليلا على ما بلغت اليه الملاحة في ذلك العصر .

ولما استفحل الملك وتدفقت سيول الثروة على بغداد فاصبحت « ام الدنيا وسيدة البلاد » (مراصد الاطلاع ١ : ١٦٣) عمد اهل الترف والبذخ الى هذه السفن فتفننوا في بنائها واتقانها وابدعوا ما شاءت ابهة السلطان وبطر الغنى في تطويرها وتزيينها فاخرجوها على صور شتى وحاكوا بها خلقة الحيوان والطير كالليث والفيل والعقاب والغراب والجراد والدلفين . وقد حفظ لنا ابو نواس بعض هذه الاسماء فقال يمدح الامين :

الا ترى ما أعطي الامين اعطي ما لم ترء العيون

ولم تكن تظنه الظنون الليث والعقاب والدلفين (١)

ولكن لشؤم الطالع الذي تولى تاريخ الصناعات في الشرق العربي لم يتهيأ لنا في ما بايدينا من كتب الادب والتاريخ شيء من صنعة هذه المراكب وتفصيل عمارتها مع ما كان لها وقتئذ من الخطورة وجلالة الخطب وتعدد دور الصناعة لها في الابلة ومصر وعكا وصور . فلا بد لنا من الاكتفاء ببعض الاشارات التي تلمحها في الشعر لذلك العهد وان كانت لا تدل على كبير امر . وقد وجدت لجانب منها ذكرا لا يخلو من بعض الفائدة في شعر ابي نواس مرآة البيئة العباسية وهو قوله يمدح الامين وصف به حراقتي الليث والعقاب :

سخر الله للامين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سار برا سار في الماء راكبا ليث غاب
اسد باسط ذراعيه يعدو اهرت الشدق كالح الانياب
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس اذ رأوك على صو رة ليث يمر مر السحاب
سبحوا اذ رأوك سرت عليه كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء اذا ما استعجلوها لجيئة وذهاب

وقال يمدحه ايضا :

قد ركب الدلفين بطن الدجى مقتحما في الماء قد لججا
لم تر عيني مثله مركبا احسن ان سار وان عرجا
اذا استحثته عجاذيفه اعنق فوق الماء او هملجا

قال الاصبهاني راوي الديوان قال ابو هفان « اتخذ محمد (الامين) الدلفين والغرابية والجرادية والكوثرية » [ص ١٧٦ ـ ١٧٧]

ومما يزيد في تكاية هذا الدآء . دآء سكوت الكتبة والمؤرخين عن كل ما يتعلق بالمهن والصناعات والحرف والتجارات ، انه لم يتصد احد من المشتغلين باللغة لافراد رسالة او مقالة يستوعب فيها كل اسماء المراكب والسفن وادواتها

(١) باريس ديوان ابي نواس رواية الاصبهاني ع ٤٨٢٩ ص ١٧٧

المتخذة في الاسلام مع شدة الافتقار الى مثلها اليوم لتفهم بعض المتون والاخبار. ولو شاء بعض رواد الآثار العربية تتبع الفاظها المحدثة حتى في مظانها من المعاجم وكتب الدخيل والمعرب والمولد لفاته منها جانب غير يسير. والمذكورا في بعض كتب التواريخ والبلدان والادب على غير صحة ولا ضبط. وقد سرد منها البشاري وحده نيفا وثلاثين اسما غلب التحريف والخفاء على اكثرها ولكنه لم ينص على موضع استعمال كل منها [احسن التقاسيم ص ٣١ ـ ٣٢]

فلا بأس اذن ان انقل هنا ما يحضرني منهـا مما مر بي اثناء مطالعاتي مقتصرا فيه على ما كان في بغداد وحدها في ما عدا ما تقدم ذكره منها وهي: الحراقة. والطيار، والشذاة، والشذاءة، والشذاوة، والزبزب، والسميرية والسمارية، والزلال، والشبارة، والحديدي.

ومما يدل تسميها على عراقيتها «الواسطية» نسبة الى واسط ذكرها البشاري ولا شك انها كانت ترد احيانا بغداد. ويلحق بها المراكب الخيطية كانت تعمل بالابلة وتركب فيها الى الصين [كتاب البلدان لليعقوبي ص ٣٦٠]. وهنـالك اسماء اخر لم اثبتها او لم تتصل بنا. وكل هذا الذي نقلته منها صحيح اللفظ مضبوطه ولدي شواهد عليه لا ارى حاجة الى ايرادها لعدم الخلاف فيها ماخلا «الحديدي» نبه عليه صاحب السعادة احمد باشا تيمور في مقالته الممتعة في تفسير الالفاظ العباسية. قال وهو نوع من السفن ولم اقف على وصفه ولا اعلم ان كان صحيح اللفظ او محرفا [مجلة المجمع العربي ١٩٢٣: ٢٤٦] فلستدركه عليه حضرة الاب انستاس قال واظن الصحيح هو الجدي [المجلة المذكورة ص ٣٨٢] ولذلك استصوب حضرة الاب عفوا في نقـل بعض الشواهد على صحة لفظ الحديدي كما حكاه التنوخي في نشوار المحاضرة [ص ٢٠٦]

قال محمد بن عبدالملك الهمداني في الجزء الاول من تكملة تاريخ الطبري [نسخة بخزانة باريس ع ١٤٦٩]

لما صار ابن رائق بالمدائن امره الراضي بالانحدار الى واسط واضافهـا الى اعماله من البصرة وغيرها فكان ابن ياقوت برامهرمز عازما على التوجه الى اصبهان

« فكوتب بالاصعاد فالتقى ابن ياقوت في طيار، وابن رائق في حديدية فسلم كل واحد منهما على صاحبه ايماء من غير قيام » [ص ٥٦]

وقال بعد ذلك :

« ودخل البريدي بغداد ... لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة ٣٢٩ ... وكان معه من الزبازب ، والطيارات ، والحديديات ، والشذاءات ما لا يحصى» [ص ٧٩]

وقال ايضا في حوادث سنة ٣٦٤ :

« وراسل عضد الدولة الطائع لله بابني محمد بن معروف حتى استعاده ودخل الى بغداد في حديدي جلس على سطحه وخرج عضد الدولة في طيار، فتلقاه قريبا من قطيعة ام جعفر وصعد الحديدي وقبل البساط ويد الطائع لله » [ص ١٤٣]

وممن ذكر الحديدي ايضا غير مرة ابن الفوطي في تاريخه المحفوظ في الخزانة التيمورية ومن العبث الاطالة بنقله . فيكون قد توارد ثلاثة من العلماء والمؤرخين على استعمال هذا اللفظ : التنوخي ، والهمداني ، وابن الفوطي . ومثل هذا الاجماع كاف في مقام الاستشهاد . ولعل الحديدي سمي كذلك لدخول الحديد في بنائه .

وقد يسبق الى الظن ان اتخاذ السفن في بغداد كان مباحا وطلقا لمن شاء كيف شاء ولم تكن قط حسبة عليه كسائر الصناعات والحرف . ولكن يوخذ من شهادة الشابشتي ان بناء المراكب كان مقيدا محصورا ليس في جملته فقط بل في تحديد طوله وعرضه . وهو قوله :

« اشتهى بعض ولد الرشيد التفرج والتنزه في الماء فاراد ان يبني زلالا يجلس فيه فمنعه اسحق (ابن ابراهيم الطاهري خليفة السلطان ببغداد) وقال هذا شيء لاتحب ان تعمل مثله إلّا بامر امير المؤمنين واذنه فكتب الى المعتصم يستاذنه في ذلك فخرج الامر الى اسحق باطلاقه له . فكتب اسحق : « ورد علي كتاب من امير المؤمنين باطلاق بناء زلال لم يحد لي طوله ولا عرضه فوقفت امره الى ان استطلع الرأي في ذلك » فكتب اليه يحمده على احتياطه ويحد له ذرع الزلال » [الديارات ص ١٤ ــ ١٥]

وهـذا من اول الدلائل على ما كانت عليه رسوم الولاية ونظام المعيشة والصناعات في الصدر الاول من العصر العباسي من الاحتياط والضبط وقلة الفوضى في اوقات الدعة والسكون وهو ما يبعث على التحسر والاسف ان لا يكون تعرض احد من السلف لتدوين خصائص هذه الحضارة الباهرة التي تفردت بها على ضفافي دجلة والنيل الدولتان العباسية في بغداد والفاطمية في مصر .

اقالون [فرنسة] حبيب الزيات

(لغة العرب) :— من يطلع على هذه المقالة يقدر علم الكاتب . وهو من الراسخي القدم في التحقيق والتدقيق . ونحن نشكره على هـذه المقالة البديعة ونستزيده في هذا الموضوع واشباهه . اما المركب المسمى « الحديدي » فلقـد اصاب حضرته المحز . وكنا نحن قد وجدنا « الجدي » في كتاب خطي كان عندنا يقول صاحبه ما هذا حرفه : قال ابو القاسم : يحتاج ان تعرف الوان المراكب من السفن، والسميريات ، والمراكب العماليات ، والزبازب ، والطياوات والشذوات ، والبرمات ، والحراقات ، والزلالات ، والمالست (كذا) ، والكمندوريات والبالوع . والطبطـاب ، والخيطيات ، والجدي ، والجاسوس ، والورحيات ، والقوارب ، والشلمي ، والجعفريات ، والزو . اه

وكنا قد ظننا ان « الجدي » هي من الروايات الصحيحة ، لمشابهة هذا الاسم لاسم الحيوان المعروف ، لكننا نرى الان ان الحديدي هو الصحيح ولم يبق شك في هذه التسمية بعد ان ذكر لنا الكاتب المحقق الشهادات العديدة التي اوردتها .

﴿ استدراك بخصوص آل قشعم ﴾

قلت في هذه المجلة (٥ : ١٣٩) ان اول ذكر عرفته عن آل قشعم في العراق لا يتعدى العقد الثاني من القرن الحادي عشر وفاتني ان كلشن خلفا الذي نقلت عنه الخبر كان قد ذكرهم قبل ذلك . وهذا تعريب ما قيده :

« ولما دخلت سنة ٩٥٣ (١٥٤٦ م) سار الوالي الوزير (اياس باشا والي بغداد قاصدا البصرة) فزار بطريقه الروضة الرضية لفاتح خيبر (علي بن ابي طالب) لاستحصال الاستعداد للفتح والظفر ثم حرك الوالي ركابه الى البصرة بعد ان اتلف شيخ آل قشعم الذي كان قد سلك طريق الطغيان مؤذيا النـاس في تلك الانحاء ... » اه

يعقوب نعوم سركيس